أوهام في الشواهد

للدكتور يوسف عبد الرحمن الضبع

أخطاء لا يحسن السكوت عليها هداني إليها إلمامي بعلم العروض الذي يستهين به من يغيب عنه أن الشاهد ثلث النحو . إذ لابد للقواعد من شواهد تزكيها وتكسبها رواجا وقبولا . وإن كتب المتقدمين على فضلها وحفلها بالأدلة والبراهين طغى فيها الشاهد الشعري على سواه من كلام الله . غاب عنهم هذا التقدير . وخفي هذا التصور على كثير . فصرفت أبصارهم عن تفهم علم العروض .

« ما ضرّ الورود وما عليهـــا إذا المزكوم لم يطعم شذاها

ولما للشواهد الشعرية من أثر بالغ في الطبع وهوى في السمع شغف بها الكرام الكاتبون . وهام في أوديتها المؤلفون حتى طغت في استدلالهم على ما كان أجدر بالغلب والأكثار منه وهو كلام الله .

ألم تر إلى سيبويه كيف فعل في الكتاب وهو إمام النحاة وأول من أرخى العنان وأطال النفس في أول علم ظفر بالتأليف . لقد أربى ما استشهد به من الشعر على الخمسين بعد الألف من الأبيات على حين كانت شواهده في كتابه من القرآن المبين ثلاثة وسبعين وثلاثمائة . وكذلك فعل المبرد في كتابه المقتضب . وبسيبويه والمبرد بدئت وختمت دولة المجتهدين في علم النحو من علماء البصرة الذين استبقوا الباب لاستنباط مسائله وبناء قواعده وتخير شواهده من بين عشاق النحو ، وعلماء الكوفة هائمون في رواية الأشعار والتندر بالأخبار .

فلما أفاقوا من سباتهم جدوا في إدراك قافلة البصريين . وكانت حقائبهم ملأى بالأشعار وكنائنهم مفعمة بالقريض . فأسرفوا أيما إسراف في الانفاق منه وكل امرئ ينفق مما عنده . ونضحت آنيتهم بما يثير العجب من استشهادهم بشطر البيت ولو كان مجهول القائل وجعله أساسا لبناء بعض قواعدهم .

ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب . وانطلق الملأ منهم يفتنون ويتفننون في بسط الكلام بذكر ما قبل الشاهد وما بعده وما يتصل به من قرب أو بعد وأول القصيدة وما كان لبعض أبياتها من تشطير أو تضمين دون أن تمت إلى شئ من ذلك حاجة أو تدعو اليه ضرورة في أكثر الأحيان . وقد يسف بعضهم فلا يعف عن ذكر مجون الماجنين وفتون المأفونين . وربما كان الباعث عليه بادى الرأى حوقلة معمر سئمت منه الحياة وتراءى له شبح المنون كما فعلوا في استعارة بيت امرئ القيس

كأن قلوب الطير رطبا ويابســـا لدى وكرها العناب والحشف البالى

وقد جاء شطره الأخير ضمن شعر منسوب لشيخ وقور هو ابن نباته ، وحاش لمثله إن صحت تلك النسبة أن يقصد منه غير الدعابة والتسلية عن ماض أسرف في الفرار بيد أنها كما قال أمير الشعراء رحمه الله . :

تلك الدعابة يارواة سخيفة فحذار ثم حذار من تكـــرارها

وأمعن في السخف منها وأكثر إسفافا ماانحدر إليه من ضمن أمدح بيت فحشا وفجورا فهوى ببيت جرير الذى هز أعطاف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ونال به ما نال من واسع العطاء . وكان كدرة في عقد طوق ، جيد حسناء هبط بقول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمـــين بطون راح

إلى قرار سحيق في الخلاعة والاستهتار .

صرف هذا اللون المزرى نفرا غير قليل عن البناء إلى الطلاء . ومال بآخرين

إلى السراب دون اللباب . وما كان أغناهم عنه بنهج المغنى الذى أغنى به الله مؤلفه ابن هشام . ولقد صدقت كلمته (أغناني المغنى) جوابا لمن سأله. هلاّ أعربت القرآن أو فسرته .

أفلا تبصرون أنه ضمنه زهاء ستين وثمانمائة وألفى شاهد من كتاب الله مع بيان وجوه القراءات وتوجيه الروايات . وبسط آراء المفسرين وكره عليها بالتأييد أو التفنيد ومطالعة القراء برأى جديد يعقله العالمون ويقبله كلام رب العالمين . وهذا الاتجاه مما لم يسبق اليه أو ينافس فيه .

ثم جعل للشواهد الشعرية مكانها بعد الاستشهاد بما صح من الحديث النبوى الشريف وما ذكر لفظا نابيا في تحليله أو تدليله فجاء كتابه (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) جنة أبوابها ثمانية فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . لا فيها غول ولا تأثيم .

وإني آنست نأيا عن جادة الصواب التى سلكها صاحب المغنى في مؤلفاته ومنهاجه ليسلموا ويريحوا . ولكنهم وقعوا في أخطاء كان تجنبها يسيرا عليهم لو أنهم رفعوا رءوسهم لعلم العروض . ليستقيم لهم نسبة الأبيات إلى بحورها .

رأيتنى مطالبا ببيانها لا سيما أنها في كتب متداولة يتناولها طلاب العلم في مختلف دوره ومعاهده وفاء للعلم وأداء للأمانة وليتلافي الوقوع في مثلها الخلف فلا يستهينوا بما يمت إلى العربية بسبب .

وها أنا ذا مورد بعضها على سبيل التمثيل لا عدّا يحصيها وحدا يحصرها .

الأول منها بيت جرير ص ١٨ ج ١ شرح ابن عقيل .

أقلى اللوم عاذل والعتـــابن وقولى إن أصبت لقد أصابن

وهو أول شاهد شعرى نسبه أستاذنا العلامة الشيخ محي الدين عبد الحميد في منحة الجليل على شرح ابن عقيل إلى البحر الطويل وهو لا يستقيم عليه بل ينفر منه لأن تفاعيل الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) مرتين

والعروض أنه من البحر الوافر . وتفاعيله التى يستقر في ميزانها :

(مفاعلتن مفاعلتن فعولن) مرتين

ولقد عنيت بتتبع الطبعات كلها حتى السادسة عشرة الأخيرة فوجدته فيها جميعها منسوبا إلى الطويل مما حدا بي إلى استقصاء جميع الشواهد الشعرية في الكتاب كله فألفيت شيخنا رحمه الله قد عدل عن نسبة الأبيات إلى بحورها وحسنا فعل. والبحر الوافر من البحور العذبة التى أكثر الشعراء من النظم عليها ليسرها وحسن وقعها وسهولة نسبة الأبيات إلى ميزانه الذى لا يعول معه من يأخذ نفسه بالرياض على وزن الأبيات . لإن وزن الشعر يرهف الحس ويرقق الشعور . والشعر صنو الموسيقى وتوءم الغناء .

وأذن المغنى تحس النسيم وتسمع في الكأس رقص الحبب .

وما شبه بيت جرير السالف ببيت قديم من نفس البحر أنشده الخليل بن احمد الفراهيدى مبتكر هذا الفن لطالب كان يختلف عليه لتلقى علم العروض دون أن يسعفه استعداده فلما حار في أمره الخليل وعيل معه صبره طلب منه وزن البيت :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فخرج الطالب وفهم المراد ورضى من الغنيمة بالإياب .

ولا ضير أستاذنا الشيخ محي الدين صاحب المؤلفات التى أربت على مائة كتاب أن يند عنه الصواب في نسبة بيت إلى بحره . ويبدو أنه ككثير من معاصريه وسابقيه لم يحفل بعلم العروض مع قوة صلته وشدة ارتباطه بعلم النحو الذى استأثر بجل مؤلفاته .

ومن عجب أن أحدا من دارس منحة الجليل لم يفطن لهذا الخطأ . وأعجب منه ما رأيته على هامش حاشية الصبان شرح الأشموني وهو من المراجع النحوية وتتلقفه الأيدى يتداوله كل منتسب لملح الكلام .

فلقد ألفيت الأمام العينى صاحب شرح الشواهد قد ضل الطريق في نسبة عدد غير قليل من الأبيات إلى غير بحورها مما سأطالع به القراء .

بل إن العلامة الصبان . وهو صاحب الباع الأطول في التحقيق والتدقيق والمؤلفات المحررة في شتى العلوم ومختلف الفنون ومن بينها علم العروض فقد كتب فيه نظما ونثرا متنا وحاشية قد مسَّه السهو وند عنه التوفيق في نسبة البيت :

يا حكم بن المنذر بن الجارودْ سرداق المجد عليك معقود (١)

فقد نسبه إلى البحر الرجز المذيل شذوذا ، ولعل الذى دعاه إلى هذا التوجيه هو الذى حدا بالعينى إلى القول بأنه لراجز من بنى الحرماز . وجعل الجوهرى من قبلهما يعزوه الى رؤبة . لما كان رؤبة والعجاج يمطران في وديان الأراجيز .

وفي الحق والحق أقول إن الأئمة الثلاثة قد طاشت سهامهم في تلك النسبة الخاطئة . وإن كانت هناك لائمة والسهو لا يلام عليه فالشيخ الصبان إليها أدني لأنه أضاف إلى خطئه في تلك النسبة الشذوذ . والشذوذ لا يصار إليه إلا إذا ضاقت القواعد بما رحبت ولم يكن عن متن الضرورة مندوحة . وهنا مجال وسعة يتقى معها الشذوذ . ويستقيم في ظلها القريض المشهور . حيث إن هذا الشاهد فيما أرى وهو يطابق الواقع بيتان من البحر السريع المشطور الموقوف . وهو يستقيم مع تفاعيله كما ترى .

(يا حكمبْ) مفتعلن. بعد طيِّها (نلمنذربْ) مستفعلن (نلجارودْ) مفعولانْ موقوفة (سرادقلْ) مفاعلن . مخبونة (مجد علىْ) مفتعلن مطوية (كمعقودْ) فعولانْ . مخبونه موقوفة ولا يستقيم بحال ما ذهب إليه الأمام الصبان . حتى مع الشذوذ . لأن آخر تفعيلة وهى السادسة وزنها الأصلى من الرجز على ما ذهب إليه الصبان (مستفعلن) وبعد التذييل الشاذ على رأيه (مستفعلان) ثم غشيها

(١) الاشموني جـ ٣ ص ١٤٣

الخبن بعده فتصير معه بعد التحويل (مفاعلان) من سبعة أحرف لا من ستة كما تنطق بها (فعولان) فأين ذهب الحرف السابع وبأى ذنب قتل وهو أول وتد .

اللهم إني عرضته على الزحافات كلها بنوعيها وعلى العلل كذلك فأبين أن يحملنه وأشفقن منه حيث إنه أول وتد من آخر تفعيلة . ومثله لا يقبل زحافا ولا علة هذا وقد تقبله بقبول حسن البحر السريع وأنست به تفاعيله . وأصلها (مستفعلن مستفعلن مفعولات) مرتين ويصير بالشطر والوقف (مستفعلن مستفعلن مفعولانْ)

وفي هذا وعليه سلامة من الشذوذ الذى قال به العلامة الصبان . ومع ارتكاب الشذوذ فانه ناب عن البحر الرجز المطية التى ذل متنها لكل لامس حتى سمى حمار الشعراء .

هذان شاهدان زلت فيهما أقدام الراسخين في العلم . وذانك برهانان على أن هذا الفن جدير بعناية أدق وأعمق حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها .

وإني مردفهما بمثنى وثلاث ورباع طاشت فيها سهام الأمام العينى في نسبة ما استشهد به العلامة الأشموني في شرحه لألفية ابن مالك .

أولها ص ١٢٤ جـ١ البيت :

أيها السائل عنهمْ وعـــنى لست من قيس ولا قيس منى

قال عنه الأمام العينى إنه من البحر المديد . والصواب أنه من البحر الرمل .

ثانيها ص ١٣٩ جـ١ البيت :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيـــام

قال عنه العينى إنه من الرمل والصواب أنه من الكامل

ثالثها ص ١٩١ جـ١ البيت :

غير مأســوف على زمــن ينقضى بالهــم والحزن

مما أهمل نسبته العيني وهو من المديد .

رابعها ص ٢٥٥ جـ١ البيت :

إن هو مستوليا على أحـــد إلا على أضعف المجـــانين

قال عنه العيني إنه من الوافر والصواب أنه من المنسرح.

خامسها ص ٢٦٤ جـ١ البيت :

فموشكة أرضنا أن تعـــودا خلاف الأنيس وحوشا يبابا

قال عنه العلامة العيني إنه من المتدارك والصواب أنه من المتقارب .

سادسها ص ١٧٤ جـ١ البيت :

لمية موحشا طـــــلل يلـــوح كأنه خـــــلل

قال عنه العيني إنه من الكامل والصواب أنه من الوافر

سابعها ص ١٨٤ جـ١ البيت :

لقى ابـــنى أخويه خائفا منجديه فأصابوا مغنما

قال عنه العيني إنه من المديد والصواب أنه من الرمل

ثامنها ص ٢٧٦ جـ٢ البيت :

ما زال يوقن من يؤملك بالغـــنى وسواك مانـــع فضله المحتـــاج

قال عنه العيني انه من الوافر والصواب أنه من الكامل .

تاسعها ص ١٤٢ جـ٣ البيت :

يا حكم بن المنذر بن الجـــارود سرادق المجد عليك معقود

قال عنه الصبان إنه من الرجز والصواب أنه من السريع .

عاشرها ص ١٧٨ جـ٣ البيت :

يا أسم صبرا على ما كان من حدث إن الحوادث ملقى ومنتظـــر

قال عنه العينى إنه من الطويل والصواب أنه من البسيط .

الحادى عشر ص ٢٢٦ جـ٣ البيت :

اضرب عنك الهموم طارقهـا ضربك بالسيف قونس الفرس

قال العينى إنه من الوافر والصواب أنه من المنسرح .

الثاني عشر ص ٢٧٠ جـ٣ البيت :

وذكرت من لبن المخلق شربة والخيل تعدو في الصعيد بداد

مما أغفله العينى وهو من الكامل .

الثالث عشر ص ٦٥ جـ٣ البيت :

فوافينـاهم منـا بجمـع كأسد الغاب مردان وشيب

قال عنه العينى إنه من الكامل والصواب أنه من من الوافر

الرابع عشر ص ٢٨ جـ ٤ البيت :

فأقسم لو أندى الندى سـواده لما سمحت تلك المسالات عامر

قال عنه الأمام العينى إنه من البسيط والصواب أنه من الطويل .

الخامس عشر ص ٤٠ جـ ٤ البيت :

لو بغير الماء حلقـى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

قال عنه العينى إنه من الوافر والصواب أنه من الرمل .

السادس عشر ص ٨٢ جـ٤ البيت :

كم بجود مقرف نـال العلا وكريم نجله قد وضـعه

قال العينى إنه من المديد ، والصواب أنه من الرمل

السابع عشر ص ٨٣ جـ٤ البيت :

تؤم سنانا وكم دونـه من الأرض محدود بانمـارها

قال عنه العينى إنه من الوافر والصواب أنه من المتقارب .

الثامن عشر ص ٢٣٩ جـ٤ البيت :

جاءوا بجيش لو قيس معرسه ما كـــان إلا كمعرس الدئل

قال عنه العينى إنه من الوافر والصواب أنه من المنسرح .

التاسع عشر ص ٣٢٦ جـ٤ البيت :

وقد علمت عرسى مليكة أننى أنا الليث معديا عليه وعاديـــا

قال عنه العينى إنه من الكامل والصواب أنه من الطويل .

المتمم عشرين ص ٢٥٢ جـ ٤ البيت :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابـــا

قال عنه العينى إنه من الكامل والصواب أنه من الوافر .

الحادى والعشرون ص ١٨ جـ١ منحة الجليل شرح ابن عقيل وقد ذكر أولا مفصلا

أقلى اللوم عاذل والعتابـــــا وقولى أن أصبت لقد أصابا

وبالتجاوز عن إغفال نسبة الشاهدين الثالث والثاني عشر في عداد ما اغفلت نسبته وقد نسبتهما تكون الأبيات التى حرفت نسبتها لبحورها ووضعت يدى عليها تسعة عشر . وسأوالى بعون الله المتابعة . وأوافي القراء بما أراه والله المستعان .

د. يوسف عبد الرحمن الضبع